تفسير ابن كثير

يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى ومن عكس انعكس ولهذا قال تعالى { هن أم الكتاب } أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه { وأخر متشابهات } أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم وقد تحتمل شيئا آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه فروي عن السلف عبارات كثيرة فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس Bهما : المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وأحكامه وحدوده وفرائضه وما يؤمر به ويعمل به وعن ابن عباس أيضا أنه قال المحكمات قوله تعالى : { قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا } والايات بعدها وقوله تعالى : { وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه } إلى ثلاث آيات بعدها ورواه ابن أبي حاتم وحكاه عن سعيد بن جبير به قال : حدثنا أبي حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن إسحاق بن سويد أن يحيى بن يعمر و أبا فاختة تراجعا في هذه الاية وهي { هن أم الكتاب وأخر متشابهات } فقال أبو فاختة : فواتح السور وقال يحيى بن يعمر : الفرائض والأمر والنهي والحلال والحرام وقال ابن لهيعة عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير : هن أم الكتاب لأنهن مكتوبات في جميع الكتب وقال مقاتل بن حيان : لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهن وقيل في المتشابهات : المنسوخة والمقدم والمؤخر والأمثال فيه والأقسام وما يؤمن به ولا يعمل به رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وقيل هي الحروف المقطعة في أوائل السور قاله مقاتل بن حيان وعن مجاهد المتشابهات يصدق بعضها بعضا وهذا إنما هو في تفسير قوله { كتابا متشابها مثاني } هناك ذكروا أن المتشابه هو الكلام الذي يكون في سياق واحد والمثاني هو الكلام في شيئين متقابلين كصفة الجنة وصفة النار وذكر حال الأبرار وحال الفجار ونحو ذلك وأما ههنا فالمتشابه هو الذي يقابل المحكم وأحسن ما قيل فيه هو الذي قدمنا وهو الذي نص عليه محمد بن إسحاق بن يسار C حيث قال منه آيات محكمات فهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم الباطل ليس لهن تصريف عما وضعن عليه قال : والمتشابهات في الصدق ليس لهن تصريف وتحريف وتأويل ابتلى ا فيهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام ألا يصرفن إلى الباطل ويحرفن عن الحق .

ولهذا قال تعالى { فأما الذين في قلوبهم زيغ } أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل { فيتبعون ما تشابه منه } أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى

مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه لأنه دافع لهم وحجة عليهم ولهذا قال ا تعالى : { ابتغاء الفتنة } أي الإضلال لأتباعهم إيهاما لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن وهو حجة عليهم لا لهم كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح ا وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وتركوا الاحتجاج بقوله { إن هو إلا عبد أنعمنا عليه } وبقوله { إن مثل عيسى عند ا كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون } وغير ذلك من الايات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات ا وعبد ورسول من رسل ا .

وقوله تعالى { وابتغاء تأويله } أي تحريفه على ما يريدون وقال مقاتل بن حيان و السدي يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن وقد قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن عبد ا بن أبي مليكة عن عائشة Bها قالت : قرأ رسول ا صلى ا عليه وسلّم { هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات } إلى قوله { أولو الألباب } فقال : [فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى ا فاحذروهم] هكذا وقع الحديث في مسند الإمام أحمد من رواية ابن أبي مليكة عن عائشة Bها ليس بينهما أحد وهكذا رواه ابن ماجه من طريق إسماعيل بن علية و عبد الوهاب الثقفي كلاهما عن أيوب به ورواه محمد بن يحيى العبدي في مسنده عن عبد الوهاب الثقفي عن أيوب به وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب وكذا رواه غير واحد عن أيوب وقد رواه ابن حبان في صحيحه من حديث أيوب به ورواه أبو بكر بن المنذر في تفسيره من طريقين عن النعمان بن محمد بن الفضل السدوسي ولقبه عارم : حدثنا حماد بن زيد حدثنا أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة به وتابع أيوب أبو عامر الخراز وغيره عن ابن أبي مليكة فرواه الترمذي عن بندار عن أبي داود الطيالسي عن أبي عامر الخراز فذكره وهكذا رواه سعيد بن منصور في سننه عن حماد بن يحيى الأبح عن عبد ا بن أبي مليكة عن عائشة ورواه ابن جرير من حديث روح بن القاسم و نافع بن عمر الجمحي كلاهما عن ابن أبي مليكة عن عائشة به وقال نافع في روايته عن ابن أبي مليكة : حدثتني عائشة فذكره وقد روى هذا الحديث البخاري عند تفسير هذه الاية و مسلم في كتاب القدر من صحيحه و أبو داود في السنة من سننه ثلاثتهم عن القعنبي عن يزيد بن إبراهيم التستري عن ابن أبي مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة Bها قالت : تلا رسول ا صلى ا عليه وسلّم هذه الاية : { هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات } إلى قوله : { وما يذكر إلا أولو الألباب } قالت : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى ا فاحذروهم] لفظ البخاري وكذا رواه الترمذي أيضا عن بندار عن أبي داود الطيالسي عن يزيد بن إبراهيم به وقال : حسن صحيح وذكر أن يزيد بن إبراهيم التستري تفرد بذكر القاسم في هذا الإسناد وقد رواه غير واحد عن

ابن أبي مليكة عن عائشة ولم يذكر القاسم كذا قال وقد رواه ابن أبي حاتم فقال : حدثنا أبي حدثنا أبو الوليد الطيالسي حدثنا يزيد بن إبراهيم التستري و حماد بن سلمة عن ابن أبي مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة Bها قالت : سئل رسول ا صلى ا عليه وسلّم عن قول ا تعالى : { فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه } فقال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى ا فاحذروهم] وقال ابن جرير : حدثنا علي بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم عن حماد بن سلمة عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة Bها قالت : نزع رسول ا صلى ا عليه وسلّم بهذه الاية : { يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة } فقال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [قد حذركم ا فإذا رأيتموهم فاعرفوهم] ورواه ابن مردويه من طريق أخرى عن القاسم عن عائشة به وقال الإمام أحمد حدثنا أبو كامل حدثنا حماد عن أبي غالب قال : سمعت أبا أمامة يحدث النبي صلى ا عليه وسلّم في قوله تعالى : { فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه } قال [هم الخوارج] وفي قوله تعالى : { يوم تبيض وجوه وتسود وجوه } قال [هم الخوارج] وقد رواه ابن مردويه من غير وجه عن أبي غالب عن أبي أمامة مرفوعا فذكره وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفا من كلام الصحابي ومعناه صحيح فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم النبي صلى ا عليه وسلّم غنائم حنين فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة ففاجؤوه بهذه المقالة فقال قائلهم وهو ذوالخويصرة ـ بقر ا خاصرته : اعدل فإنك لم تعدل فقال له رسول ا صلى ا عليه وسلّم [لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني] فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب وفي رواية خالد بن الوليد رسول ا في قتله فقال [دعه فانه يخرج من ضئضىء هذا أي من جنسه قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم] ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب Bه وقتلهم بالنهروان ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة ثم نبعت القدرية ثم المعتزلة ثم الجهمية وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق صلى ا عليه وسلّم في قوله [وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة قالوا : من هم يا رسول ا ؟ قال : من كان على ما أنا عليه وأصحابي] أخرجه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو موسى حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا المعتمر عن أبيه عن قتادة عن الحسن بن جندب بن عبد ا أنه بلغه عن حذيفة أو سمعه منه يحدث عن رسول ا صلى ا عليه وسلّم أنه ذكر [إن في أمتي قوما يقرؤون القرآن ينثرونه نثر الدقل يتأولونه

على غير تأويله] لم يخرجوه .

وقوله تعالى { وما يعلم تأويله إلا ا } اختلف القراء في الوقف ههنا فقيل : على الجلالة كما تقدم عن ابن عباس Bه أنه قال : التفسير على أربعة أنحاء : فتفسير لا يعذر أحد في فهمه وتفسير تعرفه العرب من لغاتها وتفسير يعلمه الراسخون في العلم وتفسير لا يعلمه إلا ا ويروى هذا القول عن عائشة و عروة و أبي الشعثاء و أبي نهيك وغيرهم وقد قال الحافظ أبو القاسم في المعجم الكبير : حدثنا هاشم بن مزيد حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش حدثني أبي حدثني ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول ا صلى ا عليه وسلّم يقول [لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال : أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغي تأويله { وما يعلم تأويله إلا ا والراسخون في العلم يقولون آمنا به } الاية وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يبالون عليه] غريب جدا وقال ابن مردويه : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا أحمد بن عمرو حدثنا هشام بن عمار حدثنا ابن أبي حاتم عن أبيه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن ابن العاص عن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال : [إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه فآمنوا به] وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال : كان ابن عباس يقرأ : وما يعلم تأويله إلا ا ويقول الراسخون آمنا به وكذا رواه ابن جرير عن عمر بن عبد العزيز و مالك بن أنس أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله وحكى ابن جرير أن في قراءة عبد ا بن مسعود : إن تأويله إلا عند اللهو والراسخون في العلم يقولون آمنا به وكذا عن أبي بن كعب واختار ابن جرير هذا القول .

ومنهم من يقف على قوله : { والراسخون في العلم } وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول وقالوا : الخطاب بما لا يفهم بعيد وقد روى ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به وكذا قال الربيع بن أنس وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفرالزبير : { وما يعلم تأويله } الذي أراد ما أراد { إلا ا والراسخون في العلم يقولون آمنا به } ثم ردوا تأويل المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد فاتسق بقولهم الكتاب وصدق بعضه بعضا فنفذت الحجة وظهر به العذر وزاح به الباطل ودفع به الكفر وفي الحديث أن رسول ا A دعا لابن عباس فقال [اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل] ومن العلماء من فصل في هذا المقام وقال : التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان : أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه ومنه قوله تعالى : { وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل } وقوله { هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله } أي حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد فإن أريد بالتأويل هذا

فالوقف على الجلالة لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا ا D ويكون قوله { والراسخون في العلم } مبتدأ و { يقولون آمنا به } خبره وأما إن أريد بالتأويل المعنى الاخر وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء كقوله { نبئنا بتأويله } أي بتفسيره فإن أريد به هذا المعنى فالوقف على { والراسخون في العلم } لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار وإن لم يحيطوا علما بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه وعلى هذا يكون قوله : { يقولون آمنا به } حالا منهم وساغ هذا وأن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه كقوله { للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم } إلى قوله { يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا } الاية وقوله تعالى : { وجاء ربك والملك صفا صفا } أي وجاءت الملائكة صفوفا صفوفا .

وقوله إخبارا عنهم { يقولون : آمنا به } أي المتشابه { كل من عند ربنا } أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق وكل واحد منهما يصدق الاخر ويشهد له لأن الجميع من عند ا وليس شيء من عند ا بمختلف ولا متضاد لقوله : { أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير ا لوجدوا فيه اختلافا كثيرا } ولهذا قال تعالى : { وما يذكر إلا أولو الألباب } أي إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولوا العقول السليمة والفهوم المستقيمة وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عوف الحمصي حدثنا نعيم بن حماد حدثنا فياض الرقي حدثنا عبد ا بن يزيد وكان قد أدرك أصحاب النبي A أنسا وأبا أمامة وأبا الدرداء Bهم قال : حدثنا أبو الدرداء أن رسول ا A سئل عن الراسخين في العلم فقال : [من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه ومن أعف بطنه وفرجه فذلك من الراسخين في العلم] وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : سمع رسول ا A قوما يتدارؤون فقال [إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب ا بعضه ببعض وإنما أنزل كتاب ا يصدق بعضه بعضا فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوا وما جهلتم فكلوه إلى عالمه] وتقدم رواية ابن مردويه لهذا الحديث من طريق هشام بن عمار عن ابن أبي حازم عن أبيه عن عمرو بن شعيب به وقد قال أبو يعلى الموصلي في مسنده : حدثنا زهير بن حرب حدثنا أنس بن عياض عن أبي حازم عن أبي سلمة قال : لا أعلمه إلا عن أبي هريرة أن رسول ا A قال [نزل القرآن على سبعة أحرف والمراء في القرآن كفر ـ قالها ثلاثا ـ ما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه جل جلاله] وهذا إسناد صحيح ولكن فيه علة بسبب قول الراوي لا أعلمه إلا عن أبي هريرة وقال ابن المنذر في تفسيره : حدثنا محمد بن عبد ا بن عبد الحكم حدثنا ابن وهب قال : أخبرني نافع بن يزيد قال : يقال : الراسخون في العلم المتواضعون المتذللون في مرضاته لا يتعاظمون على من فوقهم ولا يحقرون من دونهم ثم قال تعالى مخبرا أنهم دعوا ربهم قائلين { ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ

هديتنا } أي لا تملها عن الهدي بعد إذ أقمتها عليه ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ الذين يتبغون ما تشابه من القرآن ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ودينك القويم { وهب لنا من لدنك } أي من عندك { رحمة } تثبت بها قلوبنا وتجمع بها شملنا وتزيدنا بها إيمانا وإيقانا { إنك أنت الوهاب } .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا عمرو بن عبد ا الأودي وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب قالا جميعا : حدثنا وكيع عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن أم سلمة أن النبي A كان يقول [يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك] ثم قرأ { ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب } ورواه ابن مردويه من طريق محمد بن بكار عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن أم سلمة وهي أسماء بنت يزيد بن السكن سمعها تحدث : إن رسول ا A كان يكثر من دعائه [اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قالت قلت : يا رسول ا وإن القلب ليتقلب ؟ قال : نعم ماخلق ا من بني آدم من بشر إلا قلبه بين أصبعين من أصابع ا D فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه] فنسأل ا ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب ـ وهكذا رواه ابن جرير من حديث أسد بن موسى عن عبد الحميد بن بهرام به مثله رواه أيضا عن المثنى عن الحجاج بن منهال عن عبد الحميد بن بهرام به مثله وزاد : [قلت يا رسول ا ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي ؟ قال : بلى قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن] ثم قال ابن مردويه : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا محمد بن هارون بن بكار الدمشقي حدثنا العباس بن الوليد الخلال أخبرنا يزيد بن يحيى بن عبيد ا أخبرنا سعيد بن بشير عن قتادة عن حسان الأعرج عن عائشة Bها قالت : كان رسول ا A كثيرا ما يدعو [يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قلت : يا رسول ا ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء فقال : ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إذا شاء أن يقيمه أقامه وإذا شاء أن يزيغه أزاغه أما تسمعين قوله { ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب }] غريب من هذا الوجه ولكن أصله ثابت في الصحيحين وغيرهما من طرق كثيرة بدون زيادة ذكر هذه الاية الكريمة وقد رواه أبو داود والنسائي وابن مردويه من حديث أبي عبد الرحمن المقري زاد النسائي وابن حبان وعبد ا بن وهب كلاهما عن سعيد بن أبي أيوب : حدثني عبد ا بن الوليد التجيبي عن سعيد بن المسيب عن عائشة Bها أن رسول ا A كان إذا استقيظ من الليل قال [لا إله إلا أنت سبحانك اللهم إني أستغفرك لذنبي وأسألك رحمة اللهم زدني علما ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب] لفظ ابن مردويه وقال عبد الرزاق عن مالك عن أبي عبيد مولى سليمان بن عبد الملك عن عبادة بن نسي أنه أخبره أنه سمع قيس بن الحارث يقول : أخبرني أبو عبد ا

الصنابحي أنه صلى وراء أبي بكرالصديق Bه المغرب فقرأ أبو بكر في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورتين من قصار المفصل وقرأ في الركعة الثالثة قال : فدنوت منه حتى إن ثيابي لتكاد تمس ثيابه فسمعته يقرأ بأم القرآن وهذه الاية : { ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا } الاية قال أبو عبيد : وأخبرني عبادة بن نسي أنه كان عند عمر بن عبد العزيز في خلافته فقال عمر لقيس : كيف أخبرتني عن أبي عبد ا ؟ قال عمر : فما تركناها منذ سمعناها منه وإن كنت قبل ذلك لعلى غير ذلك فقال له رجل : على أي شيء كان أمير المؤمنين قبل ذلك قال : كنت أقرأ { قل هو ا أحد } وقد روى هذا الأثر الوليد بن مسلم عن مالك والأوزاعي كلاهما عن أبي عبيد به وروى هذا الأثر الوليد أيضا عن ابن جابر عن يحيى بن يحيى الغساني عن محمود بن لبيد عن الصنابحي أنه صلى خلف أبي بكر المغرب فقرأ في الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة قصيرة يجهر بالقراءة فلما قام إلى الثالثة ابتدأ القراءة فدنوت منه حتى إن ثيابي لتمس ثيابه فقرأ هذه الاية { ربنا لا تزغ قلوبنا } الاية .

وقوله { ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه } أي يقولون في دعائهم : إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه وتجزي كلا بعمله وما كان عليه في الدنيا من خير وشر